إيـــلو . . . !

للأســـتاذ عبد الحق فاضل

... إيلو ، أو إيلا ، أو إيلي ، أو إيلين ، أو ما تشاء من أسماء التحبب والتدليل . ولـكن « الزا » هو اسمها الصحيح الذى سماها به أبواها وعمداها به فى الـكنيسة .

جميلة فى غاية الجمال . وذكية جداً ، ولبقة جداً .

لها عينان براقتان ، وفم صغير رقيق الشفتين يلذ لك أن تتابع بعينك تثنيهما وتلويهما حين تتحدث اليك ، وأن تراقب بأذنك تكسر الألفاظ عليهما فى عذوبة ورشاقة ودلال ... بارعة فى تصريف الأحاديث بلباقة نادرة وظرف أخاذ . وهى إذا تحدثت اليك عبرت لك عن مرادها بكل جوارحها — بعذوبة صوتها ، وإشارات يديها ، وحركات رأسها ، وتثنى جسمها النض ولحاظ عينيها اللامعتين . فجسمها كله يتكلم وكله يبتسم ، حتى ليخيل اليك أن ثوبها وزينتها أيضاً وسيلة عندها من وسائل التعبير ! فأنت لهذا مضطر إلى الإصغاء اليها بكل جوارحك أيضاً ، والافتتان بمحاسنها بكل قلبك وعقلك جميعاً .

لعوب طروب لها مراح العصفور ونشاطه ، ودود ظريفة تحملك على الإعجاب بها والهيام بكل وسيلة . فهى لذلك معتدة بنفسها ، تعرف قيمة جمالها وسحرها ، وهى لذلك أيضاً تعنى بإناقة ثوبها وزينتها ما وسعتها العناية .

لم أرها ! ... ولـكن أمها هى التى حدثتنى عنها وسردت على قصة مأساتها المحزنة وفاجعة موتها قبل أن تتم الخامسة من عمرها غماً وكمداً ... فهى طفلة صغيرة كما ترى ! ولـكن ذلك لم يمنعها أن تـكون غاية فى الجمال ؛ ولا أن تكون ذكية جداً ولبقة جداً ولا أن تكون زينة البيت وريحانته ، ومتعة الأهل والأصدقاء والزائرين ، ولا أن تكون مدركة لذلك كله شاعرة بقيمتها ، ومكانتها فى كل قلب ، معتدة بنفسها مزهوة بجمالها ، معنية ما وسعتها العناية بأن تكون خليقة بكل هذا الإعجاب وكل هذا التقدير ، طامعة فى المزيد . فقد كانت أبداً تحلق حول نفسها جواً صافياً من المرح والسرور ، ولا تطيق أن ترى عابساً أو حزيناً أو شخصاً منصرفاً عنها إلا بذلت جهدها لإخراجه من صمته وإدخال السرور على قلبه ولفت نظره إليها . فما يلبث ، مهما كان مهموماً أو بليداً ، أن يجاريها ما استطاع ويسر ما وسعه السرور ويضحك ما واتاه الضحك ، ويتخفف من همومه ولو إلى حين .

على أنها لم تكن تدرك أنها طفلة ! فـكانت تحاكى الـكبار وتقلدهم فيما يصدر عنهم من قول أو فعل أو إشارة . ومن بوادر ذلك مساعدة أمها فى أعمال البيت والقيام على مراقبة نظافته والعناية بشؤونه ! ومن ذلك أيضاً أنها ما كانت تبخل على أحد بالنصيحة وإمداده بالرأى الصائب فى رفق العقلاء المجربين وتودهم ودماثتهم .

وكان يشق عليها أن يوجه اليها انتقاد ، فيحمر وجهها ثم تحتال على الاعتذار فتحسن الاحتيال ، وتشفع عذرها بابتسامة خجول ، وتعد بألا تعود .

ولعل سر هذه الفتنة التى اختصت بها إيلو أو إيلا أو إيلين هو هذا التعقل والتوقر المكتسبان بتقليد الـكبار ومحاكاتهم وهى بعد فى بكور هذه الطفولة البريئة الجميلة ، المحبوبة بطبيعتها . فـكان المزاج من الطفولة والنضوج ، وفيه هذا التوافق المصنوع والتناقض المطبوع ، سحراً خالباً غالباً تتفتح له القلوب بلا مقاومة ولا عناء .

كان حديث أمها فى بدئه عادياً طبيعياً تتخلله الابتسامات ، ثم أخذ صوتها يكتئب ويرتعش ؛ ثم شرعت تروح عن نفسها بالتنهد والتحسر بين حين وحين كلما اقترب الحديث من آخره ، وكانت تزيدنى رغبة فى الانصات اليها هذه اللكنة الأرمنية الحلوة التى لم تقو على مغالبتها عشرون سنة أقامتها فى بغداد بين زوج عراقى وجيرة عراقيين .

قالت :

« ... فلما بلغت ايلو عامها الرابع رزقت غلاماً كان شؤه

على نفسه وشؤماً على أخته وعلينا . فقد مات بعد موت ايلو بأسبوعين ، بعد أن قضى عليها وأفسد صفو حياتنا . وكان أول عهدها به أنها رأت كتلة صارخة من اللحم تضطرب فى المهد ، فدنت منه فى حذر وأنعمت نظرها فيه ، وإذا طفل لم تره من قبل وصراخ لم تألفه فى البيت . فرابها أمره وأوجست منه خيفة ، والتفتت إلى تقول :

ماما ... ما هذا ؟ ! فقلت لها : إنه أخوك وديع . فقالت : أخى ! ولم يصيح هكذا ؟ إنى لا أحبه !

إنها لا تحبه ... كلمة سبقت منها كأنما ألهمتها إلهاماً قبل أن تعرف خطرها أو تدرك سببها أو تعلم ما سيكون لها فى حياتها وموتها من شأن . وقد زادتها الأيام بغضاً له كلما رأت أن له عندنا أهمية أو قيمة ، أو وجدتنا نكترث له أو نعنى بشؤونه . فهى يشق عليها أن تجدنا نصرف عنها ولو جزءاً من عنايتنا ورعايتنا إلى أخيها وديع أو أى مخلوق سواه ، وهى تفهم من ذلك أننا نزدريها ونراها غير خليقة بالاستئثار بكل حبنا وعنايتنا .

وعبثاً كنا نحاول — أبوها وأنا — إقناعها بأن لها المنزلة الأولى وأنها وحدها الأثيرة عندنا ، وإننا لا نحفل وديعاً إلا رأفة به ، وإننا سنتخلص منه يوماً ما ونريحها ونريح أنفسنا منه . وكنا نتظاهر معها باحتقاره ونجاريها فى تعداد عيوبه ومثالبه . وكنت أتحاشى أنا إرضاءه أو مداعبته أمامها ، ولكنها كانت تراقبنى فترانى أحياناً متلبسة بتقبيله أو ملاعبته فتعاتبنى بنظرة أسية وتنصرف ، كأنها تقول : إنكم تخدعوننى !

قالت لى يوماً : ماما ... ما ذا تصنعون بهذه الخليقة الحقيرة ؟ إنه مجنون يبكى ويصرخ بلا سبب ! وقذر جداً . يحدث فى ثيابه وفراشه ونفسى تشمئز منه ! وليست فيه فائدة لنا . انى أحسن منه ، وعاقلة ونظيفة ! فلماذا لا تلقونه فى الطريق ؟ ...

فقلت لها : لا يا بنيتى ، إنه صغير مسكين ، ومريض . ولهذا تريته يبكى .

فقالت : لا يا ماما . إنه يكذب ! إنه لا يبكى بل يصرخ فقط ، ولا تسيل من عينه دمعة واحدة ! فلو ألقيته فى الطريق للكلاب لا سترحت منه ، فإنه يتعبك كثيراً وأخاف عليك أن تمرضى !

فأجبتها لو ألقيناه فى الطريق يا ايلو لحق علينا غضب المسيح فلنشفق عليه إكراماً للمسيح حتى يشفى من علته — فنتركه وشأنه . ما قولك فى هذا يا ايلو ؟

فقالت : ولماذا يغضب المسيح ... أترينه يحب المجانين والقذرين ... ؟

فقلت : لا ، ولكنه يحب الضعفاء والمرضى ، ويوصينا بالعناية بهم والعطف على بؤسهم .

فقالت مغضبة : لماذا يا ماما لا يحب المسيح الأصحاء النظاف والعقلاء ، ويؤثر عليهم الذين فراشهم منتن مثل وديع الكلب ؟ أليس المسيح جميلا وطيباً كما تقولون . إنى أبغضه !

ورأت بعد ذلك أن الجدال والمنطق وحدهما لا يعودان عليها بفائدة ، فراحت تبرهن لنا ولمن يتصل بها وبنا عملياً على أنها كفء لكل تقدير وإكبار ، وأنها وحدها الجديرة بكل الإعجاب والاهتمام . فصارت تستيقظ مبكرة مع العصافير ، وتلقى بنظرة شاملة على البيت وتشرع بانتقاده وتصف فساد نظامه بخطاب موجز ، ثم تأخذ بترتيبه على رأيها ووضع كل شىء فى محله . وتغسل أوانى الشاى وتنصب المائدة قبل أن أشرع أنا بإعداد الشاى نفسه . ثم تأخذ بالمكنسة لتنظف الدار ! وتجشم نفسها من المشقة والنصب ما لا قبل لطفولتها به ، فأمنعها سدى وترفض أحياناً حتى أن أساعدتها . وأنا أعلم فيم تشق على نفسها كل هذه المشقة وفيم تتكلف كل هذا العناء ، فتنفطر مرارتى من الحزن ...

ثم تعمد إلى نفسها فتفيها حظها من التزيين والتجميل ، وترتدى أنظف ثيابها وأجلها فى عينيها ، وتجلس إلى المرآة تصفف شعرها وتمشطه حتى ترضى عن نفسها . فإذا جاء زائر خفت وبشت فى وجهه ، وقد لحظت أنها ضعفت ثقتها بنا فصرفت عنايتها إلى الزائرين ... تسعى بين أيديهم وتسائلهم إن كانوا عطاشاً لتأتيهم بالماء ، وتقدم اليهم السكر لعل الشاى أقل سكراً مما يشتهون ، وما تفتأ تتودد اليهم وتعرض عليهم محاسنها وتباسطهم وتتغنى لهم وتستميلهم بمرحها ورشاقتها وفكاهاتها حتى يأخذوها فى الأحضان ويوسعوها ضماً وتقبيلا ، ويؤدوا لها حقها من المديح والإعجاب . فتتهد وتنفض اليهم جلة حالها ... وتنكشف سريرتها فإذا كل هذا اللعب والمراح أشبه برقص الطائر الذبيح ...

تأخذ بانتقاد عدوها وديع ، وتنتقص أمامهم منه . وأصل عيوبه ومخازيه عندها أنه بكاء وقذر . وتشكو إليهم ظلامتها وبثها ، وتشكو إليهم أننا مع كل هذا نحبه وندلله ولا نضن

عليه بالعطف والإيثار . فتحكمهم بيننا وتطلب إليهم أن ينصفوها منا . فاذا حكموا لها ، وهم دائماً يفعلون ذلك ، نظرت إليّ في عتب ورجاء . وإذا أكدتُ لها أننا لا نباليه ولا نقيم له وزناً أطرقت في يأس وهزت رأسها الصغير كأنها لا تريد أن تقول لي في صراحة : إنك تكذبين يا ماما !

ولكنها مع كل ما تضمره لوديع من بغض وموجدة لم تحاول يوماً أن تؤذيه أو تمسه بسوء ، فقد كنت أرقبها إذا اختلت به مخافة أن تمتد إليه يدها البريئة بشر ، غير أنها لم تفعل من ذلك شيئاً ، وإنما كانت تكتفي بأن تحدجه بنظرات ساخطة حزينة ثم تنصرف عنه .

وكانت لنا جارة صديقة لم تُرزق ولداً ، اسمها مارى ، تصلنا بها قرابة بعيدة ومودة وثيقة . وكانت مشغوفة بحب إيليا حتى ماتكاد تنقطع عن زيارتنا وقضاء شطر من نهارها عندنا قرب حبيبتها إيلين كما كان يحلو لها أن تسميها ، فقالت لها مرة :

أنظري يا أختي مارى ! إنهم لا يزالون يحبون هذا النجس وديعاً ، وقد رأيت ماما تقبله أمس ! وهي تسهر الليالي عليه وتحنو إليه كلما بكى لترضعه وتهز أرجوحته التنينة ! أنا أكنس البيت كل يوم وأطوي ثياب بابا وأعين ماما ... ونظيفة وجميلة ! وهذا المجنون وديع الذي لا يكف عن الصياح قذر ... ورأسه صلعاء !

فلاطفتها مارى وأكدت لها أنها واهمة ، وأننا نحبها ونؤثرها ولا نقيس بها إنساناً . فقالت : لا يا أختي ، إنهم يخدعونني ويكذبون عليّ ... لو كنت مكانهم لأطعمته الكلاب أو أعطيته الشحاذين القذرين مثله .

فقالت لها مارى : اطمئني يا أختي إيلين . سنخلصك منه قريباً ، إنه قبيح بكاء لا خير فيه .

وأسرّت إلى مارى بعد ذلك أنها ستأخذ وديعاً عندها طيلة نهار الغد . ثم تزعم لإيلين أن كلب مارى ، وكان لها كلب عظيم الخلقة ، قد افترسه وأراحها منه لترى ما عساها تصنع أو تقول . وأخذته في اليوم التالي خلسة إلى دارها ، فدهشت إيلو ذلك النهار أنها لم تر وديعاً ولم تسمع له نأمة . ومضت إلى فراشه مرات عدة فلم تجده . فراحت تطوف البيت وتتحرى الغرف صامتة متلصصة لترى ماذا حل به فلم تفز بطائل . فاذا قرغت من التفتيش عادت إليّ تدور حولي وتطيل النظر في وجهي لعلها تقرأ في أساريره ما يجلو لها الخبر اليقين ... فلما ضاقت ذرعاً بالصمت والكتمان ، سألتني :

— ماما ... أين وديع ؟ فقلت لها :

— وديع القذر ؟ ماذا تريدين منه يا إيلا ؟ ... فقالت :

— أين هو ؟ إنه ليس في البيت ! فأجبتها :

— مسكين ! لقد أكله كلب مارى .

— صحيح يا ماما ؟ هل أكله كله ؟ !

— نعم . التهمه عن آخره !

فتورد خداها وبرقت عيناها ، وصاحت :

— فلا قبلتك إذن ! وألقت نفسها في حضني تغمر وجهي بقبلاتها ، وأخذت تضمني بشدة غريبة وهي تدس رأسها في صدري كأنما تريد أن تدخله في أضلاعي . فسالت دموعي على هذه الصغيرة المعذبة اللعوب . وخشيت وخامة العاقبة متى اطلعت على جلية الأمر ، فلم أك أقدر أن يصيبها كل هذا الفرح الجنوني البريء .

ثم تركتني وهرعت إلى الأرجوحة لتأخذ منها الفراش ، وبذلت جهداً عنيفاً حتى أخرجته فأمسكت من أحد أطرافه كأنما تحاذر أن تتنجس يدها منه ، وراحت تجره وراءها في صحن الدار . وصادف دخول أبيها في تلك اللحظة فأخذها بين ذراعيه وسألها ما تصنعين يا إيلي ؟ فقالت له :

— بابا ، لست تدري ! إن كلب مارى قد أكل وديعاً كله ، ولم يترك منه ذرة واحدة ! فلنرم فراشه في الطريق ، وأرجوحته أيضاً وثيابه . كلها قذرة ووديئة .

وما كادت تفلت من بين يديه وتأخذ بالفراش من جديد حتى دخلت علينا مارى وعلى ذراعها وديع وهي تقول :

— إنه بكّاء مزعج حقاً فخلصوني منه !

ولا تسل عما أصاب إيلو . فقد بهتت ووجمت ، واصفر وجهها ، وأفلت طرف الفراش من يدها . ولم تعد تقوى على الوقوف فقعدت من فورها على الأرض مستندة إلى الجدار . ثم انتبذت ناحية منزوية من تلك الغرفة (وأشارت بيدها إلى الغرفة التي عنتها) في ذلك الركن . وطفقت تبكي بكاءا متصلا أبكانا نحن الكبار ، إذ لم يستطع كل بغضها لوديع أن يسيل لها دمعة من قبل ، ولم تعودنا يوما وهي الطروب اللعوب أن نراها تبكي أو تشكو من شيء ، فقد كانت أبداً كما قلت لك لاعبة ضاحكة

السن نشيطة خفيفة الظل والحركة — تكظم الغيظ وتداري أحزان قلبها الغض باللعب والمزاح . ولكنها شعرت هذه المرة أنها أهينت في صميم كبريائها . وقد قالت لنا ونحن نحاول عبثاً أن نسترضيها ونمنيها الوعود : إنكم لم تعودوا تحبون إيلو ... تزدرونها وتضحكون عليها .

وظلت تبكي بلا انقطاع رغم ما بذلنا من جهود ، وظل جسدها يضطرب ويهتز بين أيدينا من الانتحاب والشهيق كالسعفة تعبث بها ريح هوجاء .

ولم تذق عشاء تلك الليلة ، ولا أحسبها نامت فقد كانت تتململ في فراشها تململ السليم ، فإذا ناديتها أودنوت منها أغمضت جفنيها وتناومت ... ولم تنهض على عادتها باكرة في الصباح ، ولم أشأ أن أوقظها حتى علا النهار ، فقامت مثاقلة مسترخية محمرة العينين منتفخة الأجفان من السهر والبكاء ، ولم تعن بالبيت أو تلق بالاً إلى نظامه أو نظافته ، ولا جلفت زينتها ، أو مرآتها ، ولا غيرت ثوباً أو مشطت شعراً ، ولا رحبت بزائر ولا صديق . وخلا المنزل من لعبها وقفزها وأوحش مذ ذلك اليوم . وكان كل ما تفعله أن تقابلني وتجلس أمامي في المطبخ أو في الصحن أو في الغرفة ، خافضة الرأس ساكنة الأطراف مغرقة في الوجوم والتفكير مستسلمة إلى الحزن الصامت واليأس الأليم . وأخذ جسمها يذوى ويذوب كالشمعة المحترقة يوماً بعد يوم ، وغاضت ابتساماتها وخبا ضوؤها وخفت صوتها . فراعنا الأمر وتحيرنا ماذا نفعل . ولم يكن في عزمنا أن نتخلى عن وديع أو نعهد به إلى مرضع أو مربية فقد كان أثيراً عندنا حقاً إذ لم يكن لنا ولد ذكر سواه ، ولم يكن بيدنا مالا ننفق منه على المربيات والحواضن لو أردنا ذلك . وحار في أمرها الطبيب وكثر ما تناولته من الأدوية والعقاقير صابرة طيعة لا تتمرد ولا تقاوم ، وقد ذقت مرة دواء كانت تشربه فوجدته مراً حاداً كريهاً تعافه النفس ؛ وعجبت كيف كانت تشربه في طوعية واستسلام فأرقته وأعفيتها من شربه ، كأنها تنازلت عن إرادتها إذ لم تعد تنتفع بها ، أو رفضتها ورمت بها في وجهنا . فلم تبد رغبة في شيء أو تتذمر من أمر . حتى أن ماري اقترحت عليها مرة أن تأخذها عندها لتعتني بها وتقوم على راحتها وتسليتها وتتبناها فقالت نعم . فسألتها أنا هل ترغبين حقاً أن تمضي مع ماري إلى دارها ؟ فقالت نعم . فقلت أم تؤثرين البقاء عندنا ؟ فلم تزد على أن قالت نعم ! فنظر بعضنا في وجوه بعض قانطين حائرين .

ولبثت عند ماري أياماً لم تزد حالها فيها إلا سوءا على سوء ، فلم نجد بداً من استرجاعها . وشرع أبوها يطوف بها المتنزهات ويقتني لها الملاهي والألاعيب والحلوى أصنافاً وضروباً ، ولا يألو جهداً في تسليتها والترويح عنها ، في غير جدوى .

ومالي أطيل عليك وأثقل على نفسي ونفسك ... إن ذكرى أيامها الأخيرة لتحزّ في فؤادي كالمدية الكليل ، وتشب في ضلوعي مثل النار ... وجدناها ذات صباح جثة هامدة في فراشها شاخصة إلى الأرجوحة ببصرها كما يشخص القتيل ببصره إلى القاتل ... » .

واختنق صوتها بالبكاء وانهمرت من عينيها الدموع . فلم أتمالك أن أخرج منديلي وأجفف به عيني الدامعتين .

هذه هي قصة إيلو أو إيلا أو إيلين أو ما تشاء ... كما سمعتها من أمها . لقد كانت ذات نفس كبيرة وحس دقيق رهيف ، جاوزت حدّ الطفولة في الشعور بالعظمة والكبرياء ... غيوراً يهمها أن تكون ملحوظة أبداً معنياً بها لا ينازعها في ذلك منازع ولا يزاحمها على منزلتها عند أبويها إنسان . فماتت شهيدة بطلة بعد أن ناضلت وجاهدت ، وأبلت أحسن البلاء ؛ وحيدة لا معين لها ولا نصير ، شجاعة صابرة لا يعروها ضعف ولا جزع ، ولا ينال من بشاشتها أو يخرجها عن سجيتها خور ولا قنوط ... حتى خذلها الأهل وعز النصير ، فأيقنت بالفشل وأدركت أن جهودها ضائعة لا محالة ، وأنهم لم ينصفوها ويقدروها قدرها على حال . فألقت سلاحها وانسحبت من الميدان في إباء وحسرة وسكون ، وأسلمت قلبها الغض إلى الأحزان ، وفوضت أمرها إلى الله . وهكذا انتحرت تلك الكرامة البريئة المؤذاة !

ومع أني لم أرها ... ثم مع أني قد مضى على سماعي نبأ مأساتها عام أو يزيد ، فإني ما زلت تعودني ذكراها من آن لآن فأحزن عليها حزني على القريب والحبيب . لكأنني رأيتها وعرفتها ولاعبتها وأحببتها كل الحب وكلفت بها أيما كلف ، ثم ... كأنني فقدتها الساعة

سكك حديد الحكومة المصرية

خط مصر الأسكندرية

يتشرف المدير العام بإعلان الجمهور أنه يسير الآن قطاران فاخران سريعان (درجة أولى وبولمان) بين القاهرة والأسكندرية فى المواعيد الآتية : —

		٩٩٣	٩٩١			٩٩٢	٩٩٠
مصر	قيام	٨٫٣٠	١٧٫٣٠	الأسكندرية	قيام	٨٫٠٠	١٧٫٠٠
طنطا	قيام	٩٫٤٤	١٨٫٤٤	سيدى جابر	قيام	٨٫١٠	١٧٫١٠
سيدى جابر	قيام	١١٫٢٢	٢٠٫٢٢	طنطا	قيام	٩٫٤٩	١٨٫٤٩
الأسكندرية	وصول	١١٫٣٠	٢٠٫٣٠	مصر	وصول	١١٫٠٠	٢٠٫٠٠

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)